(١٨)

إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار

يقول تعالى فى سورة ص :

* ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ ﴾ .

[ص: ٤٥ - ٤٧].

الخطاب فى هذه الآيات لرسول الله ﷺ يأمره فيها بذكر أنبياء الله إبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم السلام ومن قبلها أمره بذكر أنبياء آخرين فقال تعالى :

﴿ .. وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ١٧]. ثم عطف عليه ولده.

* ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠].

* ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ .

[ص: ٤١].

ومن بعدها قال تعالى :

* ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ ﴾ [ص: ٤٨].

وبذلك يكون الله ـ تعالى ـ قد ذكر تسعة أنبياء .. منهم من ذكر بشأنه بعض التفصيلات، ومنهم من اقتصر على ذكره فقط مع وصفه بصفات الخير ... ويتخلل هذا الذكر قوله تعالى :

* ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

وينتهى هذا الذكر بقوله تعالى :

* ﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [ص: ٤٩].

وتنتهى سورة « ص » بقوله تعالى :

* ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص: ٨٧، ٨٨].

هذه مقدمة ضرورية للإحاطة بجو السورة والذكر الذى يشيع فيها من مبتدأها

لمنتهاها تمهيداً للدخول فى الموضوع الذى سوف يقتصر على الآيات التى تصدرت هذا المقال :

* فقد ذكر الله ـ تعالى ـ إبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم السلام وشرفهم بنسبتهم إليه ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا ﴾ وبلفظ العبودية فهى أعلى مقام يصل إليه كل مخلوق. ويقتصر ذكرهم على تزكيتهم دون أن يقص علينا شيئاً من قصصهم. فبماذا زكاهم ؟

* ﴿ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ ﴾ أى لهم أيادٍ ممدودة بالخير لمن يطلبه ولا يدخرون وسعًا فى ذلك وأعظم ما فى أيديهم من خير هو دعوتهم إلى الله، فمن استجاب لدعوتهم فاز بخير الدنيا والآخرة. ولهم أبصار فى آيات الله الكونية وبصائر فى آيات الله التنزيلية وشرائعه وأوامره ونواهيه. وبماذا زكاهم أيضاً ؟

* ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم ﴾ والمُخْلَص هو من اصطفاه الله واختاره وخلّصه من كل الشوائب والأكدار وهيأه منذ نعومة أظفاره لتحمل النبوة والرسالة .. فما أن يحملها الرسول ـ كل رسول ـ حق حملها .. فإنه يجد الإعانة من الله عز وجل .. وأعظم ما يعين لاستمرار السير على صراط الله المستقيم هو الذكر الدائم للآخرة لذلك كانت أداة الاستخلاص والخلاص والإخلاص ما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ فلا وسيلة غيرها، ولا دار غيرها حيث لا دار فى الحقيقة إلا الدار الآخرة حيث البقاء والخلود والقرار.

إذاً فالمرتقى ليس صعباً ولا مستحيلاً ولا مقصوراً على هؤلاء الذين أسماهم الله ـ تعالى ـ ﴿ عِبَادَنَا ﴾ .. فهم عباد ونحن عباد والوصول إليهم ليس ببعيد المنال، ووسيلة وصولهم إلى ما وصلوا إليه من مكانة متاحة لكل العباد.. ألا وهى الذكر الدائم للدار الآخرة.. لأن هذا الذكر يعين كل عبد مجتهد على اجتناب المعاصى والآثام .. وعلى فعل الطاعات والقربات لكى يزحزح عن النار .. ولكى يدخل الجنة .. ﴿ .. فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وإذا كان طريق الوصول والارتقاء .. هو ذكرى الدار، فإن هاوية الانتكاس والارتكاس هى نسيان الدار .. لذلك قال تعالى فى نفس السورة :

* ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦].

وقال تعالى فى غير سورة «ص» :

* ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [الأعراف: ٥١].

* ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٤].

* ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [الجاثية: ٣٤].

ونعود مرة أخرى إلى ما زكّى الله به أنبياءه وعباده إبراهيم وإسحق ويعقوب .. فقد ختم هذه التزكية بقوله تعالى :

* ﴿وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار﴾. وهذه تزكية أخرى لهم من الله تعالى فقد اصطفاهم من دون الخلق لتحمل الرسالة والنبوة، وقد رشحهم وأهّلهم لذلك أنهم من أهل الخير المجتنبين للشر.

ونسأل الله أن يجعلنا من دائمى الذكر للدار الآخرة، وأن يحشرنا فى زمرة المصطفين الأخيار .. آمين .

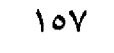

(١٩)

الإنسان .. في القرآن الكريم

يقول تعالى فى سورة المعارج :

* ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢١].

* إن الإنسان صنعة الله .. والصانع أعلم بصنعته. وقد وصف الله سبحانه وتعالى الإنسان فى القرآن الكريم بصفات عديدة، وهى فى الغالب صفات ذميمة مطلوب منه أن يجاهد نفسه لكى يتخلص منها لأن وجودها يعوقه أن يكون أهلاً لتنفيذ الأوامر والتكاليف الصادرة إليه من ربه، فالأوامر فى القرآن الكريم لا تكون إلا بعد هذا النداء من الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴾ فما يكون من الذين آمنوا إلا أن يقولوا: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾.

أما الإنسان فلا ينادى فى القرآن الكريم بأوامر وفرائض وتكاليف، لأن الإنسان مثله كمثل قطعة من معدن خام لا تصلح للتصنيع والتشكيل قبل صهرها لكى تتخلص من خبثها. فإذا تخلصت من خبثها وأصبحت نقية من الشوائب أمكن تصنيعها وتشكيلها والاستفادة منها على الوجه الذى يريده لها صانعها.

وهكذا الإنسان .. عليه أن يتخلص من خبثه والشوائب العالقة به .. وهى الصفات التى وُصف بها فى القرآن الكريم، فإذا تخلص منهاواستبدلها بالصفات العكسية والمضادة لها أصبح مهيأً للتشكيل بما يصدر إليه من أوامر ونواهى.

واستمع إلى قول الله ـ تعالى ـ فى هذا المعنى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٧ - ١٠]. فالإنسان بهذا المعنى له طبيعة مزدوجة، وتشتمل نفسه على الفجور والتقوى. فإذا أراد لنفسه الفلاح فى الدنيا والآخرة عليه أن يزكى نفسه بالتخلى عن صفات الفجور، والتحلى بصفات التقوى. أما إذا دساها فقد أراد لنفسه الخيبة والخسران.

وهذا هو الابتلاء الذى من أجله خلق الله الحياة الدنيا مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك: ١، ٢].

وهذا هو الابتلاء الذى من أجله خلق الله الإنسان مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ١ - ٣].

* لقد وصف الله الإنسان فى الآيات التى تصدرت هذا الموضوع فى سورة المعارج بأنه هلوع، وتفسر الآيات الهلع برد فعل الإنسان للخير والشر. فإذا مسه الشر مجرد مس جزع لذلك وانتابه الخوف والرعب وكأنه لم يكن فى خير قبل أن يأتيه هذا الشر ويأسًا من أن يأتيه خير بعد هذا الشر. وإذا مسه الخير مجرد مس استأثر به ومنعه عن غيره خوفًا من نقصانه أو ضياعه ولاعتقاده بأنه الجدير وحده دون غيره بهذا الخير.

أين هذه الصورة البائسة للإنسان الهلوع، من صورة الإنسان المؤمن المطمئن بالله الذى زكى نفسه وتحلى بالتقوى وتخلى عن الفجور ووصفه الرسول عليه الصلاة والسلام متعجبًا: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» رواه مسلم عن صهيب بن سنان رضي الله عنه.

وهو المؤمن الذى عرف عن الله قوله تعالى :

* ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

* ﴿ ... وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

عرف ذلك عن الله فاطمأن قلبه بالله، وتوكل على الله، وعلم أن الله ـ تعالى ـ لا يريد إلا الخير لعباده، فالخير دائمًا فيما يختاره الله، لذلك فهو حامد لله دومًا، راض بقضائه، وقانع بعطائه، وقبل ذلك موقن بلقائه .. وهى الشروط الثلاثة لطمأنينة النفس كما جاءت فى الدعاء المأثور: «**اللهم إنى أسألك نفسًا مطمئنةً: توقن بلقائك، وترضى بقضائك، وتقنع بعطائك**».

فما هى الصفات الأخرى التى وصف الله بها الإنسان فى القرآن الكريم ؟

١ ـ الظلـم والجهـل :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

٢ ـ اليـــأس :

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴾.

[الإسراء: ٨٣].

٣ ـ الضعـــف :

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٨].

٤ ـ العجلـــة :

﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴾ [الإسراء: ١١].

٥ ـ الجـــدال :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ [الكهف: ٥٤].

٦ ـ الشـــح والتقتيـــر :

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ

الإنسَانُ قَتُوراً ﴾ [الإسراء: ١٠٠].

٧ ـ الكفـر والجحـود :

﴿ قُتِلَ الإنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ [عبس: ١٧].

﴿ إِنَّ الإنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات: ٦].

٨ ـ الطغيـان :

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ [العلق: ٦، ٧].

٩ ـ الهلـع والجـزع والمنـع :

﴿ إِنَّ الإنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢١].

ونكتفى بهذا القدر من صفات الإنسان الذى ذُكر فى القرآن الكريم خمسة وستين مرة.

وعلى الإنسان إذا أراد لنفسه الخير فى الدنيا والآخرة ـ كما ذكرنا من قبل ـ أن يتخلى عن صفات الفجور ومنها ما ذكرناه آنفاً، وأن يتحلى بصفات التقوى.

اللهم آت نفوسنا تقواها وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها.

.. آمين .